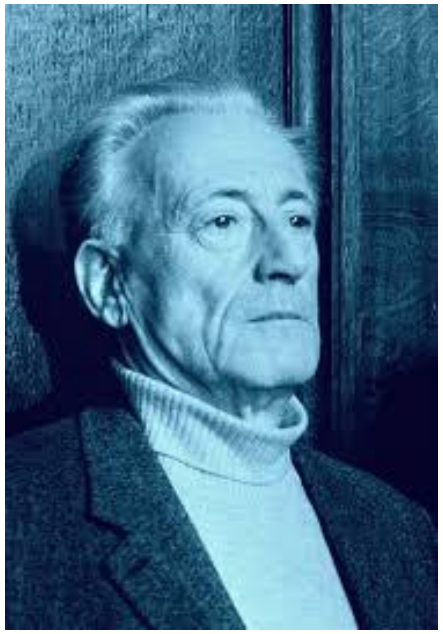

الحصة الخامسة

سُؤَال اليَوْمي عنْدَ لُوفيفْر:

مَشْرُوع رُؤْيَة نَقْديَّة للحيَاة اليَوْميَّة

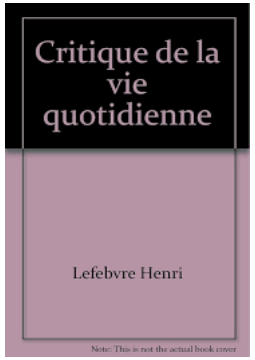

مَشْرُوع نَقْد الحيَاة اليَوْمِيَّة

لم يكن هنري لوفيفر مجرَّد مفكر ماركسي انخرط في زمانه، زمان الغليان الأيديولوجي؛ بل وضع مشروعًا في عدَّة أجزاء، عنوانه «**نَقْد الحيَاة اليَوْميَّة**» والذي يتوزَّع على ثلاثة أجزاء: 1. الجزء الأول: «**نَقْد الحيَاة اليَوْمية**» (1947)، 2. الجزء الثاني: «**مَبَادِئ في سُوسْيُولُوجْيَا اليَوْميَّة**» (1961)، 3. الجزء الثالث: «**منَ الحدَاثَة إلى التَّحْديث: منْ أجْل فَلْسَفَة شَارحَة لليَوْمي**» (1981)، بالإضافة إلى جزء آخر مستقل عنوانه: «**الحيَاة اليَوْميَّة في العَالم الحدِيث**» (1968). جاء شعار هذا المشروع: «سَيَكُونُ الإنْسَانُ يَوْميًا أوْ لا يَكُون». كان همُّ لوفيفر إرجاع الاستحقاق لليومي بدارسته في جوهره وإعادة الاعتبار إليه، بعد أن ابتعدت عنه الفلسفة نحو التَّأمُّلات الخالصة.

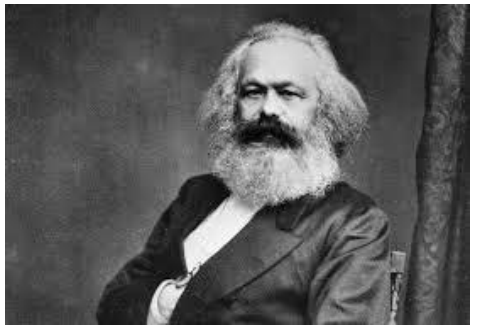

المرْجِعِيَّات المارْكسِيَّة

كانت المرجعيات الصريحة لبلورة نقد الحياة اليومية تتلخَّص في الماركسية التي أخذ عنها لوفيفر فكرة «**الاغتراب**» قبل أن يُعيد الاشتغال عليها وتبيئتها حسب الحاجة الفكرية. يُعدُّ كل من ماركس وانجلز من بين المرجعيات الصريحة التي استفاد منها لوفيفر من أجل «مَعْرفَة نَقْديَّة للحَيَاة اليَوْميَّة». استعمال مفهوم الاغتراب من شأنه أن يُبيِّن العوائق التي تعترض الإنسان في اكتماله البشري، كأن ينغمس في ضروريات العمل وينقطع عن الواقع. ما يجده هو أمور مصطنعة تُبعده عن المسائل الجوهرية وتُقلعه عن ذاته. لبلوغ هذه المسائل الجوهرية، فإنَّ الوعي بالاغتراب أمر ضروري لتذليله ومجاوزته، ولأنَّ الوعي به يفتح عيون البشر على الطابع الملتبس لليومي وهذا الالتباس أو الغموض هو خاصيته الأساسية.

اليَوْمي عِنْدَ لُوفِيفْر

كيف يُحدّد لوفيفر طبيعة اليومي؟ يقول في الجزء الثالث من «**نقد الحياة اليومية**»: «يَدُلُّ "اليَوْمي" عَلى مُجْمَل الأفْعَال اليَوْميَّة التي تَتَسَلْسَل وتُشكّل وحْدَة مُتكَامِلَة. نُؤكّد عَلَى أنَّ اليَوْمي لا يُخْتَزَل في مَجْمُوعَة منَ الأفْعَال المنْعَزلة مثْل الأكْل والشُّرْب واللبَاس والنَّوْم، إلخ» (ص8). ينبري من هذا التَّحديد أنَّ اليومي هو وحدة متكاملة ومنسجمة من الأفعال والممارسات، ولا يُمكن تمثُّله أفعالًا منعزلة ومشتَّتة. هناك وحدة معنوية تُدبّر حياة الإنسان يُدرك بموجبها هذا الأخير معقولية الأفعال التي يُنجزها، و«التي تَتَكَرَّر أو يُعَادُ إنْتَاجُهَا بسَبَب هَذَا التَّسَلْسُل ومَا يَنْطَوي عَلَيْه». يشير لوفيفر إلى عزوف الفلسفة عن اليومي الذي طبع تاريخها وتيَّاراتها الفكرية ويُشير إلى الأهمية التي بدأت الفلسفة توليها لليومي تحت وطأة الواقع المتنامي والمتحوّل. يقول: «نَظَّمَت المؤَسَّسَة السْويسْريَّة للفَلْسَفَة عام 1980 مُلْتَقَى أوروبي تَحْت عُنْوَان "اليَوْمي والفَلْسَفَة" جَعَل المشَاركين يَرَوْنَ بأنَّ الفَلْسَفَة تَنْتَظِمُ الآن بالمقَارَنَة مَعَ اليَوْمي، بالقُدْرَة عَلى إدْرَاكه وفَهْمه وإدْرَاجه في مَجَال مَفْهُومي يَهْدِفُ إلى الكُلّيَّة والعَالميَّة» (ص9).

الوَاقِعُ واليَوْمي

ويعيب لوفيفر على الفلاسفة تناولهم لليومي من خلفية نظريَّة ومثالية بدلًا من إدراكه في ذاته والسَّعي نحو تغييره. ولا مناص لهم سوى الاهتمام باليومي لتجديد خطابهم الفلسفي. لأنَّ ما تهدف إليه الفلسفة هو أن تتجدَّد بمباحثها وأطرها النظرية عبر اهتمامها الملموس والواقعي باليومي. واهتمامها باليومي هو اهتمامها بما هو واقعِ وينبثق من التجربة الحيَّة. يُميِّز لوفيفر بين الواقع واليومي، حيث أنَّ «**الواقع**» هو «المعْطَى الحسّي والعَملي، وهُو الرَّاهن والسَّطْح القَابل للإدْرَاك» بينما يكتسي «**اليومي**» دلالة «المعِيش والذَّاتية المنْفَلتَة مثْل العَوَاطِف والانْفِعَالَات والعَادَات والسُّلُوكيات» (ص11). وبحُكم أنَّ اليومي ملتبس ويأتي في صورة معيشٍ تغمره الأفعال المتعدّدة والعادات المبعثرة بالرُّغم من وحدة الشَّخصيَّة التي تمارسها، فإنَّ الفلسفة تُنظِّم هذا الشَّتات في وحدة نظرية معقولة وتمنحه الانسجام في التصوُّر.

حَرَكَة اليَوْمي

عندما يُعرِّف لوفيفر اليومي، فهو يضعه في ثلاثية تُحدِّد طبيعته ونمط اشتغاله وهي «**الحاجة-الرغبة-المتعة**». ينتظم اليومي وفق هذه المعطيات الموضوعية والذاتية في الشعور بالحاجة إلى أمرٍ ما (مثلًا الأكل أو النوم)، ثمَّ الرغبة في اقتناء شيء (السَّكن أو الأجهزة المنزلية)، وأخيرًا التمتُّع بهذه المقتنيات تحقيقًا أو إنجازًا لفاعلية الاستعمال والتبادل. الأمر البارز عند لوفيفر في تحديده لطبيعة اليومي وطريقة اشتغاله، هو إثباته **للحركة**، لأنَّ اليومي الذي تتَّخذه الفلسفة موضوعًا لها، ليس ثابتًا مثل المادَّة العُضوية في المخبر العلمي التي يسهل التجريب عليها واستخلاص قوانين فيزيائية أو حيوية تُدبِّرها، بل اليومي لا ينقطع عن التحوُّل والارتقاء: «اليَوْمي عبَارَة عَنْ "مَوْضُوع"، لكنَّه مَوْضُوعٌ غَيْر ثَابتٍ أو ذَريعَة في بنَاءِ "نَمُوذَج"، وإنَّما هُوَ نُقْطَة انْطِلَاق الفِعْل» (ص22). اليومي هو نقطة انطلاق الفعل، والفعل دينامي في طبيعته وعفوي في مساره وسلوكه، لا يمكن القبض عليه، بل ملاحظته ووصفه، وتشكيل خطابٍ عنه.

التَّغْيِيرُ مَاهِيَّة الحيَاة اليَوْميَّة

من شأن اليومي الذي يتميَّز بالحركة والفاعلية أن يدفع الإنسان إلى أن يتغيَّر في ذاته. جوهر اليومي هو **التَّغيير**، ويكون لوفيفر قد استثمر الأطروحة الحادية عشر من أطروحات عن فيورباخ، يقول فيها ماركس: «إنَّ الفَلَاسفَة قَامُوا بتَأويل العَالم بطُرُق مُخْتَلفَة، لَكن مَا يَهُمُّ الآنْ هُوَ تَحْويلُه». من شأن هذا التَّحويل أن يدفع الإنسان إلى تغيير واقعه فيما هو يتغيَّر في ذاته أيضًا. وبما أنَّ الواقعي يتميَّز بالحركة والتغيير، فإنَّ لوفيفر لا يرى طريقة أخرى في مقاربته سوى باللغة العادية، تمامًا كما دعا فتغنشتاين إلى ذلك. لا يُجدي نفعًا مقاربة اليومي في لغة معجمية معقَّدة، لأنَّ هذه اللغة التقنية لن تساير اليومي في تحوُّله وارتقائه.

المعْرِفَة النَّقْدِيَّة للحيَاة اليَوْمِيَّة

المعرفة النقدية للحياة اليومية ليست معرفة تقنية تعتمد على الجداول والنماذج المجرَّدة، فهي ليست معرفة «ابستمولوجية» همُّها ترجمة العادي في العلمي، أو قراءة الواقع الحيِّ بوصفه رموزًا ومعادلاتٍ، بل هي معرفة «نقدية» تكشف في اليومي عن أسلوبٍ خاص من السُّلوك والتعقُّل وتنفض عن هذا اليومي غبار الاستلاب والإرادة الأيديولوجية، بمعنى جميع الخطابات التي تُسْهم في بلورة الوعي الزَّائف وتحجب الواقع بأقنعة من التَّمويه والتَّضليل. غرض هذه المعرفة النقدية للحياة اليومية هو بلوغ اليومي في ماهيته القائمة على التحوُّل والانتباه الحصيف لما يعتمل فيه من تجارب حيَّة ومصادفات وإمكانيات. يقول: «هَلْ "اليَوْمي" هُوَ مَفْهُوم إجْرَائي أمْ لا؟ نَعَم، لأنَّه يُتيحُ تَحْليلًا نَقْديًا "للوَاقع". لا، لأنَّه لا يُنْتجُ شَيْئًا آخَر سِوَى اقْتِرَاحٍ سِلْبي يَقُومُ عَلَى إمْكَانٍ وَاحدٍ: "تَغْيير الحيَاة"» (ص27).

الاسْتراَتيجي والتَّكْتِيكي في اليَوْمي

مدار الحديث في تصوُّر لوفيفر لليومي هو ثنائية «**الاستراتيجية والتكتيكية**». لكن ماذا يقصد لوفيفر بهاتين المفردتين؟ نعرف بأنَّ **الاستراتيجية والتكتيكية** تنتميان إلى مجال الحرب، حيث الاستراتيجية هي التخطيط المسبق للمعركة مع الأخذ بعين الاعتبار المصادفات الحاصلة وقت المعركة، والتكتيكية هي التَّعامُل مع هذه المصادفات إبَّان المعركة، فيكون من الصعب اتِّباع حرفيًّا وخطوة بخطوة المخطَّط المسطَّر على الورقة، بل يتمُّ الاعتماد على الحدس والنباهة والمهارة في إدارة العمليَّات. نُقلت هذه الثنائية من المجال الحربي إلى الحقل الاجتماعي، على اعتبار أنَّ الحقل الاجتماعي هو أيضًا حلبة «الصراع» على عدَّة أصعدة: «**سياسية**» عبر الحملات الانتخابية والأنشطة الديمقراطية في السجال والنقاش؛ و«**نقابية**» عبر الدفاع عن حقوق العُمَّال والسَّعي نحو تحسين شروط العمل وتحسين مستواهم المعيشي؛ و«**تربوية**» من خلال التنافس في المباريات أو المسابقات وانتخاب الكفاءات؛ و«**أمنية**» بمحاربة الجريمة المنظَّمة والمخدّرات، إلخ. يقول لوفيفر: «كُل الفِئَات الاجْتِمَاعيَّة، عَلى الصَّعِيد "الميكْرُو" و"الماكْرُو"، لها تَكْتِيكيَّة واسْتراَتيجيَّة، وَاعِيَّة أم غَيْر وَاعِيَّة، ضِمْنيَّة أمْ مُصَرَّحٌ بهَا» (2، ص137).

المصَادَفَات في اليَوْمي

جاء استعمال ثنائية **الاستراتيجية والتكتيكية** من حيث أنَّ حياة الأفراد مفتوحة على المصادفات. ما يقومون به هو التخطيط لحياتهم وفق «استدلال عملي» ينطلق من مقدِّمات وينتهي بنتائج مرورًا باختيار الوسائل المؤدِّية إلى الغاية. غير أنَّ هذا الاستدلال العملي لا يجري دائمًا وفق «ما تشتهي السفن». هناك دائمًا أمور غير متوقَّعة تطرأ في الميدان، وتتطلَّب إعادة توجيه الفعل نحو تخطيطات جديدة وطرائق أخرى. يجد الأفراد أنفسهم بين مجال يُخطِّطون له لكن لا يعرفون مآله، وبين مصادفات لا يتحكَّمون فيها وينبغي عليهم مسايرتها وركوب موجتها. بين الاستراتيجية (مرحلة التَّخطيط) والتكتيكية (مرحلة الارتجال)، هناك فارق أو بَوْن، بحكم أنَّ ما يُخطَّط له لا ينتهي دائمًا بالإنجاز، بل ينبغي أحيانًا تعديل الفعل وفق استراتيجيات جديدة.

اليَوْمي واليَوْمِيَّة

يرى لوفيفر بأنَّ **أزمنة الاستراتيجية** هي أزمنة «اللَّحَظَات التَّاريخيَّة والغَلَيَان» وهي «تَمْنَح المعْنَى للفِئَات الاجْتِمَاعيَّة وَتُضْفي المعْنَى عَلى حَيَاتِهِم»، بينما **أزمنة التكتيكية** هي في نظره أزمنة الاعتيادي والسقوط في الابتذال. الفرق بين الاستراتيجية والتكتيكية هو الوجه الآخر للتمييز الذي يضعه بين «**اليَوْمي**» (quotidien) و«**اليَوْمِيَّة**» (quotidienneté). ترادف «اليوميَّة» عنده التكتيكية، حيث «تُهَيْمِنُ عَلَيْهَا التَّفَاهَة (trivial)» (ص139). ويتميَّز «اليومي» (الذي يرادف الاستراتيجية) بالقُدرة على القرار وصناعة التاريخ وإحداث التحوُّل. عندما يتحدَّث نُظَّار اليومي عن هذا الأخير بوصفه مزدوج الوجه: جدِّي وهزلي، وعميق وسطحي، وجوهري ومبتذل، فهم يشيرون إلى الفاصل الذي وضعه لوفيفر بين اليومي بطابعه الاستراتيجي في البناء والقرار والاستقرار، واليوميَّة ببُعدها التكتيكي في الانفلات والفرار والتَّفاهة.

اللُّعْبَة واللَّعِب

يُبرز التكتيكي إذن الطابع الملتبس لليومي، كونه يخضع للحركة السَّريعة وللزمن المتسارع. أحسن مثال تتجسَّد فيه التكتيكية هو «اللعبة». تتميَّز اللعبة بالحركة العفوية والارتجالية (مثلًا: كرة القدم)، لكن رغم ذلك، فهي تخضع إلى قواعد استراتيجية هي مُجمل السلوكيات الواجب اتّباعُها لضمان السَّيْر الحسن للعبة: «اللُّعْبَة هيَ إذَنْ بُعْد (مُتَسَتِّر ومَجْهُول) منَ الحيَاة اليَوْميَّة ومنَ الممَارَسَة الاجْتِمَاعيَّة» (ص142). هكذا يمكن التمييز بين **اللُّعْبَة (game)** و**اللَّعِب (play)**. اللُّعبة هي في مقام الاستراتيجية، لأنَّها تمثِّل المؤسَّسة أو المخطَّط المادّي في إدارة العمليَّات، بينما يتميَّز اللَّعب بالهزل والجدّ معًا، لأن اللَّعب من أجل الاستجمام والرَّاحة غير اللَّعب من أجل تنظيم الاجتماع البشري.

الحيَاةُ اليَوْميَّة هي « بْرَاكْسِيسْ »

ميزة الفعل البشري في الحياة اليومية أنه عبارة عن «بْرَاكْسِيسْ» (praxis) أو أداء عملي. اللَّعب هو أداء عملي يتراوح بين الهزل والجدِّ، وبين التكتيكية والاستراتيجية. بْرَاكْسِيس هي في الوقت نفسه إنتاج مادِّي وإنتاج روحي، تُنتج الوسائل وتنتج الغايات أيضًا، علاوةً على الحاجيات والخيرات. كل براكسيس هي ذات طابع ابتكاري وخلَّاق، تنقُل الحياة البشرية من «اليوميَّة» المبتذلة والمتكرِّرة إلى «اليومي» الجديد والمتجدِّد. للفرد الانطباع بأنَّ الحياة اليومية تتكرَّر بالقيام بالأفعال نفسها، من النهوض في الصباح إلى النوم في الليل، مرورًا بمجمل النشاطات التي يزاولها طيلة النهار. هذا الانطباع بتكرار الأفعال عينها هو ما يُسمَّى بـ«اليوميَّة». غير أنَّ اليوم لا يُشبه الأمس ولا يُشبه الغد، هناك دائمًا إمكانيات تتفتَّق وأفعال تُبتَكَر، مما يُعطي الانطباع بأنَّ الحياة تتجدَّد بالسَّيلان الهيرقليطي ولا تبقى في مجال الرَّتابة.

التَّحَوُّلاتُ في اليَوْمي

من جانب آخر، وانطلاقًا ممَّا يُسمّيه لوفيفر «البْراكسيس الجزئية»، يمكن القول بأنَّها تُمثّل التحوُّلات الجارية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، وهي تحوُّلات بطيئة ولكنها حاسمة، ويكمن دورها في إزاحة البنيات الثقيلة التي تُشكّل أحيانًا عائقًا أمام تحرير القوى والمهارات، وقد تسقط في الوقت نفسه في الرَّتابة والتعطُّل، وهذا ما يعيبه عليها لوفيفر. لكن فيما يُشيد لوفيفر بالاستراتيجيات التاريخية الكبرى والتي هي «**البراكسيس الشَّاملة**»، ويُشجّب التَّكتيكات الميدانية والتي هي «**البراكسيس الجزئية**»، لأنَّها تميل نحو تسوية الوضع وجعله رتيبًا ومُطَّردًا؛ يذهب ميشال دو سارتو عكس ذلك بأن يرى في الاستراتيجيات ما يتصلَّب ويتسلَّط بطبعه، ويرى في التكتيكات ما يتحايل على هذه الوحدات الكبرى ويزيحها عن ثقلها التَّاريخي، وتعطيلها الميداني للقوى الحيَّة والإرادات الصَّانعة للأحداث. هذا ما سنكتشفه في الدرس القادم المخصَّص لرؤية دو سارتو للحياة اليومية.